

أثر تجرد الخط في نشأة القراءات القرآنية عند المستشرقين - عرض ومناقشة

غانم قدوري الحمد

أستاذ علوم القرآن في جامعة بغداد وتكريت سابقاً - العراق

ملخص البحث

أهداف البحث: يهدف البحث إلى مناقشة ما ذهب إليه عدد من المستشرقين من أن أصل القراءات القرآنية يرجع إلى تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى من نقاط الإعجام وعلامات الحركات.

منهج الدراسة: اتبع هذا البحث المنهج الاستقرائي بالاطلاع على كلام المستشرقين في موضوع كتابة المصاحف ونشأة القراءات، واتبع المنهج التحليلي في دراسة الروايات والنقول العديدة التي تبحث في كتابة المصاحف القديمة، والمنهج النقدي المقارن في مناقشة ومحاور أقوال المستشرقين في موضوع البحث.

النتائج: من أبرز النتائج التي توصل إليها البحث أن تنوع القراءات لا يرجع إلى تجرد المصاحف القديمة من النقاط والحركات، بل هو نتيجة لنزول القرآن على سبعة أحرف، وأن التلقي والمشافهة هي الوسيلة التي نقل بها المسلمون القرآن جيلاً عن جيل، فلا اجتهد ولا اختراع في القراءة.

أصالة البحث: تظهر القيمة العلمية للبحث في تقرير مبدأ الثقة التامة بالنص القرآني وسلامته من أي تغيير، وتوقف دور الحفظ على نقله كما هو دون أي تدخل في عباراته وحروفه.

الكلمات المفتاحية: الخط، القراءات القرآنية، المستشرقون، المصاحف الأولى، العلامات الإعرابية.

The Effect of Abstraction of Script in the Emergence of Quranic Recitations According to Orientalists

Ghanim Al-Hamad

Professor of Quranic Studies at Baghdad and Tikrit Universities – Iraq

hamad1370@yahoo.co.uk

Abstract

Purpose: The Study aims to discuss the view of a number of Orientalists that the origin of variation in Qur'anic recitations is due to the lack of dots and vowels marks in the script in which the first Qur'ans were written.

Methodology: The study follows the inductive approach by looking at some of the orientalists' views about the topic of the writing of the Qur'an, the analytical approach in the study of narrations and many accounts that look at the writing of ancient Qur'an, and the comparative critical approach in discussing and debating the orientalists' views as to the topic of the study.

Findings: One of the most prominent findings of the study is that variations in recitations is not due to the lack of dots and vowels marks in old written Qur'ans, but is one of the fruits of the revelation of the Qur'an in what is known as the "Seven Letters," and that direct oral instruction (talaqqi or mushafaha) is the means by which Muslims transmitted the Qur'an one generation to the other, with no diligence nor invention in recitation.

Originality: The scientific value of the study is reflected in acknowledging the principle of full confidence in the Qur'anic text and its integrity from any alteration. Early memorizers of the Qur'an had a role that was limited to its conveyance one generation after the other as it is with no interference whatsoever in its words or letters.

Keywords: calligraphy, Qur'anic recitations, Orientalists, the first Qur'ans, diacritical marks.

Cite this article as: Ghanim Al-Hamad, "The Effect of Abstraction of Script in the Emergence of Quranic Recitations According to Orientalists", *Journal of College of Sharia and Islamic Studies* 38, no.1, (2020).

<https://doi.org/10.29117/jcsis.2020.0254>

© 2020 Ghanim Al-Hamad. Published in Journal of College of Sharia and Islamic Studies. Published by QU Press. This article is published under the Creative Commons Attribution (CC BY 4.0) licence. Anyone may reproduce, distribute, translate and create derivative works of this article (for both commercial and non-commercial purposes), subject to full attribution to the original publication and authors. The full terms of this licence may be seen at <http://creativecommons.org/licences/by/4.0/legalcode>

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسول الله، أمّا بعدُ:

فإنّ المصاحف الأولى كانت قد كُتبت بخط مجرد من علامات الحركات، ومن نقاط الإعجام التي تميز الحروف المتشابهة في الصورة، وثمة نظريتان لتفسير تجرد المصاحف من تلك العلامات، الأولى: أنّ المصاحف جُرّدت لتحتل القراءات، والثانية: أنّ الخط العربي الذي كُتبت به المصاحف الأولى كان خاليًا من العلامات في وقت كتابتها.

وذهب عدد من المستشرقين، ممن اطلعت على أبحاثهم بالعربية، إلى أن الخط المجرد الذي كُتبت به المصاحف الأولى كان سببًا لنشأة القراءات، وأن القراء حين قرؤوا في المصاحف التي بعث بها الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الأمصار اجتهدوا في القراءة فيها بحسب ما يدل عليه السياق، فاختلّفوا لذلك في القراءة، بسبب تجرد الخط من النقط والشكل.

وأقدم من صرّح بهذا القول، بحسب ما تيسر لي من مصادر، المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٨٩٨ م، وتناول الفكرة بعده عدد من المستشرقين بإيجاز أو تفصيل، وظلوا يرددونها، حتى دخلت الموسوعة البريطانية في تعريفها الموجز بالقرآن الكريم، ورددها بعض المستشرقين المعاصرين مثل المستشرق فرانسوا ديروش في محاضراته في الكولج دو فرانس في سنة ٢٠١٥ م.

ولم يكن هذا الأمر خافيًا على المشتغلين بعلوم القرآن في بلداننا، فقد كُتبت عدة أبحاث ورسائل في الرد على هذه النظرية، لكن تجدد الحديث عنها في البحوث المعاصرة وتبنيها من بعض الباحثين، مستشرقين وغيرهم، وما شكّله من خطورة على وثاقة النص القرآني، وما فيها من تشكيك في منهج القراء، ومجانبة لوقائع التاريخ، كل ذلك يستدعي إعادة بحثها، وعرض الأسس التي قامت عليها، ومناقشتها من خلال البحث في خصائص الخط العربي القديم الذي كُتبت به المصاحف الأولى، ومن خلال النظر في تاريخ القراءات القرآنية، وفي العلاقة بينها وبين الخط.

ومما دفعني إلى الحديث عن هذا الموضوع من جديد هو الدعوة الكريمة التي تلقيتها من وحدة البحوث والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، للمشاركة في المؤتمر الدولي الثامن عن: (الاتجاهات الغربية المعاصرة في الدراسات القرآنية: إشكالية الموضوعية والتحيز، رؤية معرفية) الذي أقامته الكلية في ٢-٣ مايو ٢٠١٨ م، والكتابة في موضوع (أثر تجرّد الخط في نشأة القراءات القرآنية عند المستشرقين).

وتناولت الموضوع أولاً من وجهة النظر الاستشراقية، التي تتلخص في أن القراءات القرآنية ناتجة بشكل أساسي عن تجرد خط المصاحف من العلامات، ثم عرضت وجهة النظر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية، وتتبع تاريخها في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، ثم ناقشت وجهتي النظر تلك، ووازنتم بينهما في ضوء مجموعة من الحقائق التاريخية المتصلة بتاريخ تدوين النص القرآني، وتاريخ القراءات القرآنية، وقدمت لتلك المباحث بدراسة عن طبيعة الخط الذي كُتبت به المصاحف الأولى، ومن ثم جاء البحث في أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: كتابة المصاحف العثمانية بخط مجرد من العلامات.

المبحث الثاني: نظرية المستشرقين في أصل القراءات القرآنية.

المبحث الثالث: وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية.

المبحث الرابع: الموازنة بين المذهبين، والترجيح بينهما.

وتنوعت المصادر التي رجعت إليها في كتابة البحث، ويمكن تقسيمها على ثلاث مجموعات، الأولى: كُتِبَ المستشرقين وأبحاثهم المتعلقة بتاريخ القرآن بعامة، والمتعلقة بالقراءات القرآنية بخاصة، مما وقفت عليه بالعربية، والثانية: كُتِبَ علوم القرآن والقراءات القرآنية التي تتضمن الحديث عن تاريخ القراءات، والثالثة: الأبحاث المعاصرة التي تتعلق بالموضوع، سواء تلك التي كُتِبَتْ للرد على نظرية المستشرقين مباشرة، أو تلك التي تتضمن معلومات جديدة تكشف عما في تلك النظرية من ضعف.

ولعل من أبرز المعوقات التي صادفتني في كتابة البحث هي عدم القدرة على الاطلاع على جميع كتابات المستشرقين حول الموضوع، وبخاصة المكتوب منها بلغاتهم الأصلية، ومن ثم اكتفيت بما اطلعت عليه منها مترجماً إلى اللغة العربية، وهي تعطي تصوراً واضحاً لوجهة نظرهم التي تكاد تكون مكررة عندهم جميعاً، ومن ثم فإن الاطلاع على بعضها قد يغني عن الاطلاع على جميعها.

ومن مُحَدِّدَاتِ البحث التي منعت من الاسترسال في عرض جميع ما يتعلق بالموضوع على نحو مستفيض عدد الصفحات التي يجب مراعاتها في كتابة البحث، تبعاً للتقاليد التي تُرَاعَى في كتابة البحوث العلمية التي تُقَدَّمُ إلى مثل هذا المؤتمر، وآمل أن يكون ما كتبه في هذه الصفحات قد استوفى أهم النقاط التي تتعلق بالموضوع، وأن تكون النتائج التي انتهى إليها مما يرضي طموح الباحثين عن الحقيقة العلمية المجردة.

هذا، والله تعالى ولي التوفيق.

المبحث الأول

كتابة المصاحف العثمانية بخط مجرد من العلامات

تنبني نظرية نشأة القراءات القرآنية عند المستشرقين على أساس أن المصاحف العثمانية كانت مجردة من العلامات، وهي حقيقة وردت في الروايات التاريخية في المصادر الإسلامية، وأكدت المصاحف المخطوطة القديمة، ومن المفيد تناول هذه القضية من هاتين الناحيتين، الأولى: الجانب التاريخي للموضوع، والثانية: تحليل تجرد خط المصاحف من العلامات في المصاحف الأولى، وذلك قبل عرض النظريات المتعلقة بنشأة القراءات القرآنية.

المطلب الأول: تجرد الخط من العلامات

مرت كتابة القرآن الكريم، كما تشير الروايات التاريخية، في ثلاث مراحل رئيسة، هي:

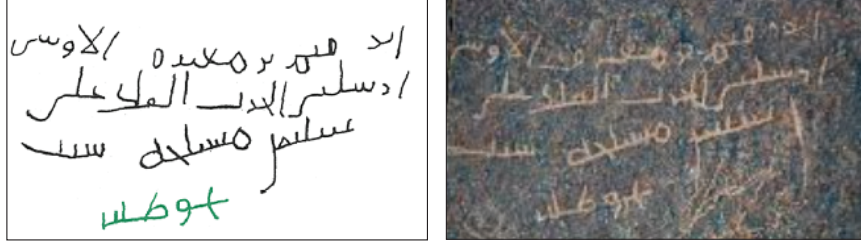
المرحلة الأولى: كتابته مفرقاً في الرقاع في زمن النبي ﷺ.

المرحلة الثانية: جُمِعَ الرقاع في صحف منظمة في خلافة الصديق ﷺ.

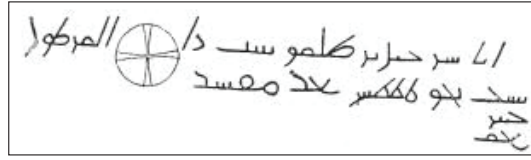
المرحلة الثالثة: نُسَخَ الصحف في المصاحف في خلافة عثمان ﷺ.

وإذا كنا لا نملك نصّاً صريحاً عن طبيعة الخط الذي كُتِبَ به القرآن الكريم في المرحلتين الأولى والثانية، فإنه يمكن الاستنتاج بأنه كان مجرداً من العلامات الخاصة بالحركات، وتمييز الحروف المتشابهة في الصورة، قياساً على تجرّد الرسم في المرحلة الثالثة، ومن خلال عدد من الشواهد التاريخية الأخرى، من أبرزها ما وصل إلينا من نقوش ترجع إلى السنين التي تسبق ظهور الإسلام بقليل، وهي مجردة من العلامات، مثل نقش جبل أُسَيْس، الذي يعود تاريخه إلى سنة ٥٢٨ م، ونقش حَرَّان اللَّجَا الذي يعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨ م، وإلى نقوش إسلامية مبكرة مثل نقش القاهرة المؤرخ بسنة ٣١ هـ، الموافق لسنة ٦٥٢ م تقريباً.

وهذه صورة نقش جبل أُسَيْس، على الصخر، ومستخلصة منه^(١):



وهذه صورة نقش منطقة حَرَّان اللَّجَا^(٢):



وهذه صورة نقش القاهرة على الصخر، ومستخلصة منه^(٣):



(١) عُثِرَ على هذا النقش سنة ١٩٦٥ م في منطقة تبعد ١٠٥ كم جنوبي شرق دمشق عند جبل أُسَيْس، وهذا نص قراءته المتداولة: (إبراهيم بن مغيرة الأوسي أرسلني الحرث الملك على سليمان مسلحة سنت ٤٢٣) بتاريخ بصري، وهو يقابل سنة ٥٢٨ م (ينظر: سهيلة الجبوري: أصل الخط العربي، ص ٥٣، وكتابي: علم الكتابة العربية، ص ٤٦، وبياترس جرنذر: تاريخ الخطوط والكتابة العربية، ص ٣٧)، ويمكن مراجعة قراءة بعض كلمات النقش، خاصة كلمة (سليمان)، إذ يمكن قراءتها (أسييس) فتكون أوضح في المعنى، وألصق بالمكان!

(٢) عُثِرَ على هذا النقش بعض المستشرقين سنة ١٨٦٤ م، على باب كنيسة القديس جون، بِحَرَّان في منطقة اللجا، وهو مكتوب بالعربية واليونانية، ويُجَلَّدُ اسم باني الكنيسة، وهذا نص قراءة النص العربي المتداولة: (أنا شر حيل بن ظلمو بنيت ذا الموطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خبير بعم)، ويقابل هذا التاريخ سنة ٥٦٨ م. (ينظر: صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي، ص ٢١، ورمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية، ص ١٥١، وكتابي: علم الكتابة العربية، ص ٤٧، وبياترس جرنذر: تاريخ الخطوط والكتابة العربية، ص ٣٨).

(٣) النقش مؤرخ بسنة ٣١ هـ (ينظر: علم الكتابة العربية، ص ٤٨-٤٩) وسوف أتحدث عن هذا النقش في المبحث الأخير، وأكتفي هنا بالإشارة إلى دلالة النقش على خلو الكتابة العربية من العلامات، في هذا التاريخ القريب من تاريخ نسخ المصاحف العثمانية.

وتتفق الرواية الإسلامية الدالة على تجرد المصاحف العثمانية من النقط والشكل مع دلالة هذه النقوش والكتابات العربية المبكرة، فقد أخرج الداني عن الأوزاعي (عبد الرحمن بن عمرو)، قال: سمعتُ يحيى بن أبي كثير (ت ١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) يقول: "كان القرآن مُجَرَّدًا في المصاحف، فأوَّل ما أَحَدَثُوا فيه التَّنْقُط على الياء والتاء، وقالوا: لا بأس به هو نُورٌ له، ثم أَحَدَثُوا فيها نَقْطًا عند مُنْتَهَى الآي، ثم أَحَدَثُوا الفَوَاتِحَ والخَوَاتِمَ"^(١).

ويدل أيضًا على أن المصاحف الأولى كانت مجردة من التَّنْقُط والشَّكْلِ قرائن تاريخية أخرى، منها:

١. نسبة اختراع النقط والشكل إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ = ٦٨٨ م) وتلامذته في حدود منتصف القرن الأول الهجري، فإنه بعد أن رأى ظهور اللحن على ألسنة الناس، ووقوعه في قراءة القرآن قرر اختراع وسيلة تمنع منه، فاختار كاتبًا قَطَّنًا، وقال له: "خُذِ المصحفَ وصِبْغًا يخالف لون المداد، فإذا فَتَحْتَ شَفَتَيْ فَانْقُطْ واحدةً فوق الحرف، وإذا ضَمَمْتُهُمَا فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كَسَرْتُهُمَا فاجعل النقطة في أسفله، فإن أَتَبَعْتَ شيئًا من هذه الحركات غَنَّةً فَانْقُطْ نقطتين، فأبتدأ المصحف حتى أتى على آخره"^(٢).

٢. كراهة عدد من الصحابة والتابعين إدخال علامات النقط والشكل في المصاحف، واحتجوا بقول عبد الله بن مسعود: "جَرِّدُوا القرآنَ، ولا تَخْلُطُوا به ما ليس منه"، وفي رواية: "ولا تَلْبِسُوا به ما ليس منه"^(٣)، وحمله عدد من العلماء على تجريد المصحف من النقط والشكل، ومن علامات الخُمُوسِ والعُشُورِ ونحوها، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: "وقد اختلف الناس في تفسير قوله: (جَرِّدُوا القرآنَ)، فكان إبراهيم [النخعي] يذهب به إلى نَقْطِ المصاحف... ويقول: جَرِّدُوا القرآنَ ولا تَخْلُطُوا به غيره، قال أبو عبيد: وإنما نرى أن إبراهيم كَرِهَ هذا مخافةً أَنْ يَنْشَأَ نَشْءٌ يدركون المصاحف منقوطةً فَيَرَوْنَ أَنَّ التَّنْقُطَ من القرآن، ولهذا المعنى كَرِهَ مَنْ كَرِهَ الفَوَاتِحَ والعواشر... وقد ذهب به كثير من الناس إلى أَنْ يُتَعَلَّمَ وَحْدَهُ وتُتْرَكَ الأحاديثُ، قال أبو عبيد: وليس هذا عندي بِوَجْهِ"^(٤).

وروى الداني أن عبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ = ٦٩٢ م) كان يكره نَقْطَ المصاحف^(٥)، وروى أبو عبيد عن إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ = ٧١٥ م) فقيه أهل الكوفة ومفتيها "أنه كان يكره نَقْطَ المصاحف، ويقول: جَرِّدُوا القرآنَ ولا تَخْلُطُوا به"^(٦)، ونقل أبو عبيد وابن أبي داود والداني عن كل من الحسن البصري وابن

(١) أبو عمرو عثمان، الداني: المحكم، دمشق وبيروت، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ٢٠١٧، ص ٦٤. والبيان في عدِّي القرآن، ص ١٣٠.

(٢) أبو بكر محمد، ابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧١، ١/٤١، وينظر: محمد بن إسحاق، ابن النديم: الفهرست، طهران ١٩٧١، ص ٤٥، والداني: المحكم ص ٨٤.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٩٥، ص ٣٩٢، وابن أبي داود في كتاب المصاحف، بيروت دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢/٥١٤-٥١٥، والداني في المحكم، ص ٨٦.

(٤) أبو عبيد القاسم، بن سلام: غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ٥/٥٥-٥٧.

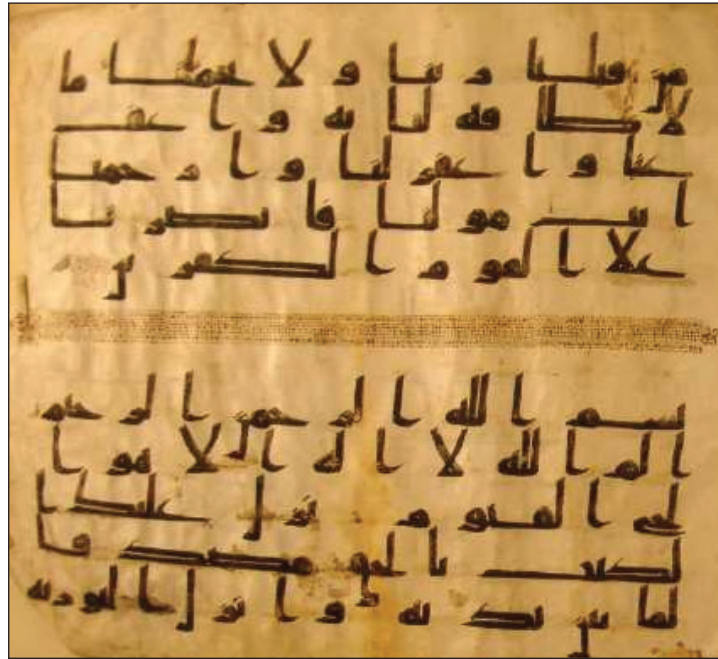
(٥) الداني: المحكم، ص ٨٣.

(٦) فضائل القرآن، ص ٣٩٢، وينظر: أبو عمرو عثمان، الداني: المحكم، ص ٨٦.

سيرين (توفي سنة ١١٠هـ = ٧٢٨م) أنها كَرِهَها نَقَطَ المصاحف^(١)، وروى ابن أبي داود عن الأوزاعي أن قتادة (ت ١١٧هـ = ٧٣٥م) قال: "وَدِدْتُ أَنْ أَيْدِيَهُمْ قُطِعَتْ، يَعْنِي مَنْ نَقَطَ المصاحف"^(٢).

وتدل هذه النصوص على أن المصاحف الأولى كانت مجردة من النقط والشكل، وأن العلامات الدالة على الحركات وتمييز الحروف المتشابهة في الصورة حادثة في الكتابة العربية بعد الإسلام، ولو كانت هذه العلامات موجودة في الكتابة العربية لما جَرَّدَ الصحابة المصاحف منها، ثم اضطر التابعون إلى التفكير في وسيلة تستكمل النقص في الكتابة، وتمنع من وقوع اللحن، في محاولات استمرت مئة عام، من زمن أبي الأسود الدؤلي الذي توفي سنة (٦٩هـ = ٦٨٨م)، مخترع نقاط الإعراب، إلى زمن الخليل بن أحمد الذي توفي سنة (١٧٠هـ = ٧٨٦م)، مخترع العلامات بالحروف الصغيرة.

وهناك رقوق كثيرة من المصاحف القديمة المجردة من العلامات، لا تزال تحتفظ بها المكتبات في بلدان شتى، وهي تشير إلى تلك المرحلة من مراحل تدوين القرآن الكريم، ويطول الحديث عن تلك الرقاع، وأكتفي هنا بصورة من أحد المصاحف المخطوطة المشهورة المجردة، وهو مصحف جامع الحسين الذي نشره الدكتور طيار آلي قولا ج في إستانبول سنة ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م:



(آخر سورة البقرة وأول سورة آل عمران)

وقد تظهر في بعض الرقوق علامات رؤوس الآي، أو نِقَاطُ الإعجام على بعض الحروف، لكن تلك العلامات تحتل أن تكون قد أُحِقَّتْ في فترات لاحقة، ولا يغير ذلك من المقولة المشهورة التي تؤكد أن المصاحف الأولى كانت مجردة من العلامات.

(١) ينظر: فضائل القرآن، ص ٣٩٢، وكتاب المصاحف، ٢/ ٥٢٢-٥٢٣، والمحكم، ص ٨٧.

(٢) ابن أبي داود، المصاحف، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢/ ٥٢٤.

المطلب الثاني: سبب تجريد خط المصاحف من العلامات

ورد في بعض المصادر القديمة ما يشير إلى احتمال أن تكون العلامات موجودة في الكتابة العربية وقت نسخ المصاحف، لكن الصحابة رضي الله عنهم جردوها ليحتمل خط المصاحف القراءات، وهي مسألة قابلة للنقاش.

فقد ذهب عددٌ من علماء السلف إلى أن الصحابة رضي الله عنهم جَرَدُوا رسم المصحف من النَّقْطِ وَالشَّكْلِ لِيَحْتَمَلَ خَطُّه القراءات، قال الداني: "وإنما أَخْلَى الصَّدْرُ منهم المصاحف من ذلك ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السَّعة في اللغات والفُسْحَة في القراءات التي أَدْنَى الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أن حَدَثَ في الناس ما أَوْجَبَ نَقْطَهَا وَشَكْلَهَا"^(١).

وقال أبو الفضل الرازي (ت ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م): "مِنْ تَوْسِعِهِمْ فِي خَطِّ المصحفِ لِيُمْكِنَ القراءةُ من الصورةِ الواحدةِ فيه أوجهًا من الأحرفِ السبعة، هو كتابتهم المصاحف غُفْلًا دون إعجام ولا نقط ولا شكل..."^(٢).

ونحا هذا المنحى في تعليل تجريد المصحف شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ = ١٣٢٨ م)، حيث قال: "وسبب تنوُّع القراءات فيما يَحْتَمِلُهُ خَطُّ المصحف هو تجويزُ الشارعِ وتَسْوِغُهُ ذلك لهم؛ إذ مرجع ذلك إلى السُّنَّةِ والاتباع، لا إلى الرأي والابتداع... وهذا من أسباب تَرْكِهِم المصاحف أَوَّلَ ما كُتِبَتْ غيرَ مشكولةٍ ولا منقوطةٍ، لتكون دلالة صورة الرسم مُحْتَمِلَةً للأمرين، كالتاء والياء، والفتح والضم، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين، وتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المثلَّوَيْنِ شبيهًا بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنَيْنِ المعقولَيْنِ المفهومَيْنِ"^(٣).

وقال شمس الدين ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ = ١٤٢٩ م): "ثم إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العَرَضَةِ الأخيرة مما صَحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما أدخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولَيْنِ المسموعَيْنِ المثلَّوَيْنِ شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنَيْنِ المعقولَيْنِ المفهومَيْنِ"^(٤).

ويُفْهَم من هذه النصوص أن النقط والشكل كانا مستعملين في الكتابة العربية في عصر نسخ المصاحف، لكن الكُتَّاب جَرَدُوا الرسم منهما، وقد دلت الدراسات الحديثة في تاريخ الخط العربي القديم أن الكتابة العربية في عصر تدوين القرآن الكريم كانت مُجَرَّدَةً أصلاً، فلم تكن علامات الحركات قَدْ أُخْرِعَتْ، ولا نقاط الإعجام قَدْ أُسْتُعْمِلَتْ، ومن ثم فإن المصاحف كُتِبَتْ مُجَرَّدَةً بناءً على ذلك، لا أن الصحابة جَرَدُواها من العلامات لتحتمل القراءات^(٥).

(١) الداني: المحكم، ص ٦١، وينظر: أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية: شرح حديث أنزَلَ القرآن على سبعة أحرف، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩، ص ١٢٧، وأبو الخير محمد، ابن الجزري: النشر ١/ ٣٣.

(٢) أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد، الرازي: معاني الأحرف السبعة، دار النوادر، ٢٠١٢، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية: شرح حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) أبو الخير محمد، ابن الجزري: النشر، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١/ ٣٣.

(٥) ينظر في مناقشة هذه المسألة بحث: مراجعة عدد من النظريات المتعلقة برسم المصحف في ضوء علم الخطوط القديمة، ضمن كتاب أبحاث في رسم المصحف وضبطه، ص ٢٧.

ومن اللافت للنظر أن الداني الذي قال بتجريد المصاحف لتحتمل القراءات صرّح بأن العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، فقال وهو يعلل زيادة بعض الحروف في رسم بعض الكلمات: "وذلك أنّ العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، فكانت تصوّر الحركات حروفاً، لأنّ الإعراب قد يكون بها كما يكون بهنّ، فتصوّر الفتحة ألفاً، والكسرة ياءً، والضمّة واواً، فتدّل هذه الأحرّف الثلاثة على ما تدلّ عليه الحركات الثلاث من الفتح والكسر والضم. ومما يدلّ على أنّهم لم يكونوا أصحاب شكل ونقط، وأنّهم كانوا يفرّقون بين المشتبهين في الصورة بزيادة الحروف، إلحاقهم الواو في (عمرو) فرّقاً بينه وبين (عمر)...^(١)".

وقال في موضع آخر: "كانت العرب تصوّر الحركات حروفاً، وتفرّق بها بين إعراب الكلم، فتجعل الفتحة ألفاً والكسرة ياءً والضمّة واواً، لأنّها لم تكن أصحاب نقط وشكل، وإنّا حدّث ذلك من بعد استعملها هذا في زمن الصحابة، رضوان الله عليهم"^(٢).

وسوف أناقش موضوع علاقة القراءات القرآنية برسم المصحف في ضوء هذه النتيجة التي تؤكد تجرّد الكتابة العربية من العلامات، وخلوها منها أصلاً في عصر تدوين القرآن في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وأناقش ما ذهب إليه المستشرقون من أن الخط المجرد الذي كُتبت به المصاحف كان سبباً لنشأة القراءات.

المبحث الثاني

نظرية المستشرقين في أصل القراءات القرآنية

تناول المستشرقون تاريخ القرآن بالدراسة، وترجموا معانيه إلى لغاتهم، وهم ينطلقون في دراساتهم تلك من مُسَلّمات يتمسكون بها، انعكست على تفسيرهم عدداً من الظواهر المرتبطة بالقرآن الكريم، مثل ظاهرة الوحي، ومصدر القرآن، وتعدد القراءات، وتنوع الرسم، واختلاف مصاحف الصحابة.

ولا يتسع البحث لدراسة جميع تلك المسائل، لأنه مخصص لبحث قضية واحدة منها، وهي نظرية المستشرقين في أثر الخط الذي كُتبت به المصاحف الأولى في نشأة القراءات القرآنية، وسوف أتبع وجهة نظرهم في ذلك من خلال ما تُرجم إلى اللغة العربية من جهودهم، وما كتبه بعضهم بالعربية، في مقدمات بعض الكتب التي حققوها.

وسوف أعتمد في استجلاء أبعاد نظريتهم على البحوث التي كتبوها مباشرة، وليس على ما كُتب في الرد عليها، حتى تكون نصوصهم ناطقة عن مواقفهم وآرائهم، ولا يمنع ذلك من الاستفادة من تلك الردود في مناقشة الأفكار التي تبنيها، وليس الهدف هو الانتصار لفريق على فريق، وإنما الوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة عن الهوى والتعصب، بقدر الإمكان؛ لأن الموضوع يتعلق بالقرآن الكريم، الذي نعتقد نحن المسلمين بأنه وحي إلهي، وأنه يحمل آخر رسالة إلى البشرية، ولا شك في أن الأحكام المسبقة المجافية لحقائق التاريخ تعد خيانة للأمانة العلمية، وحجباً لنور الهداية عن البشرية التي هي أحوج ما تكون إليه.

(١) أبو عمرو عثمان، الداني: المحكم، ص ٣١٥.

(٢) نفسه ص ٣٢٨.

ومما يلفت النظر في كتابات المستشرقين عن موضوع القراءات القرآنية أن أكثرهم ردد مقولة أثر الخط في نشأة تلك القراءات، وإن اختلفت طريقتهم في التعبير عنها، أو الاستدلال لها، وإطالة الوقوف عندها، ومع ذلك فإن هناك من تشكك منهم في أن يكون لتجرد الخط ذلك الأثر الكبير في نشأة القراءات، وهو ما قال به الكثير منهم، وقد ظل صوت القائلين بذلك الأثر عاليًا، وعُطِّي على محاولات بعضهم النظر إلى القضية نظرة موضوعية مجردة.

المطلب الأول: بدايات النظرية

قد يصعب الآن وضع مخطط تاريخي لنشأة الفكرة وتطورها عند المستشرقين، وتحديد أول من ذكرها، ولكن يمكن تتبع ظهور الفكرة في المصادر التي وقفت عليها، ولعل ما كتبه المستشرق المجري أجنتس جولدتسيهر في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) هو أوسع ما كُتِبَ عن هذه النظرية والاستدلال لها، لكن يبدو أن هناك إشارات في كتابات بعض المستشرقين قبله أرشدته إليها.

فقد وجدت المستشرق الألماني كارل بروكلمان يقول في الجزء الأول من كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي صدر سنة ١٨٩٨ م: "حقًا فتحت الكتابة، التي لم تكن قد وصلت بعد إلى درجة الكمال، مجالًا لبعض الاختلاف في القراءة، ولا سيما إذ كانت غير كاملة النقط، ولا مشتملة على رسوم الحركات، فاشتغل القراء على هذا الأساس بتصحيح القراءات واختلافاتها^(١)".

ولم أقف على نص صريح يشير إلى هذه النظرية في أشهر كتاب عن تاريخ القرآن عند المستشرقين، وهو كتاب المستشرق الألماني تيودور نولدكه^(٢)، الذي ولد في مدينة هامبورج سنة ١٨٣٦ م، والتحق في سنة ١٨٥٣ م بجامعة توبنجن، ودرس اللغات الشرقية، وكتب في سنة ١٨٥٦ م أطروحتة للدكتوراه (حول تركيب ونشوء السور القرآنية)، وقام بتطويرها إلى كتاب (تاريخ القرآن) ليظهر بطبعته الأولى سنة ١٨٦٠ م. وأعاد نشره تلميذه فريدرش شفالي مستفيدًا من ملاحظات المؤلف الذي كَتَبَ مقدمة الطبعة الجديدة، فصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٠٩ م، ثم صدر الجزء الثاني منه بعد وفاة شفالي سنة ١٩١٩ م، بإشراف أوغست فيشر، وأكمل المستشرق برجشتراسر كتابة الجزء الثالث، وتولى تلميذه أوتو برتزل الإشراف على طباعته سنة ١٩٣٧ م، وقامت مؤسسة مونراد-أدناور الألمانية بدعم تعريب الكتاب بأجزائه الثلاثة ونشره سنة ٢٠٠٤ م^(٣).

ويُعَدُّ كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه أهم مرجع عند المستشرقين للدراسات القرآنية، فقد قال جولدتسيهر وهو يتحدث عن القراءات القرآنية: "وقد عالج هذه الظاهرة علاجًا وافيًا، وبَيَّنَ علاقتها بفحص القرآن، زعيمنا الكبير

(١) كارل، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، مصر، دار المعارف، ١٩٨٣، ١/ ١٤٠، وينظر ١/ ٤.

(٢) وجدت جولدتسيهر يحيل على الطبعة الأولى من كتاب نولدكه تاريخ القرآن عند حديثه عن أثر تجرد الخط في نشأة القراءات (مذاهب التفسير الإسلامي ص ٩ هـ ١، وص ١٣ هـ ١)، لكنني حين تتبعت الموضوع في الطبعة المترجمة إلى اللغة العربية لم أجد ما يتعلق بالموضوع إلا في الجزء الثالث الذي كتبه برجشتراسر بعد وفاة نولدكه.

(٣) ينظر في التعريف بالمؤلف نولدكه، والتعريف بالكتاب وتاريخ تأليفه: نجيب العقيقي: المستشرقون، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤، ٢/ ٧٣٨-٧٣٩، ومقدمة المترجم لكتاب تاريخ القرآن، ص ١١ من المقدمة.

تيودور نولدكه في كتابه الأصيل البكر تاريخ القرآن، الذي نال جائزة أكاديمية النقوش الأثرية بباريس^(١). ووصفه آرثر جفري بالكتاب الجليل، وقال عنه بأنه "الآن أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا"^(٢).

وقد تصفحت الكتاب بأجزائه الثلاثة فلم أقف على نص واضح يشير إلى تلك النظرية في الجزأين الأول والثاني من الكتاب، لكن برجشتراسر أشار إليها في الجزء الثالث من الكتاب الخاص بالقراءات^(٣)، وقلل من شأنها في وجود القراءات القرآنية، وكأنه يرد بذلك على ما ذهب إليه جولدتسيهر، وسوف أعود لمناقشة وجهة نظره بعد أن نقف على هذه النظرية عند أبرز أعلامها جولدتسيهر.

المطلب الثاني: نظرية جولدتسيهر في نشأة القراءات

كان المستشرق المجري إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١ م) أكثر المستشرقين وقوفاً عند نظرية أثر تجرّد الخط في نشأة القراءات، وذلك في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي)، الذي صدر في مدينة لايدن سنة ١٩٢٠ م، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، وصدر في القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

ويُعَدُّ جولدتسيهر القراءات القرآنية أولى مراحل تفسير القرآن الكريم^(٤)، ومن ثم تناول القراءات وما يتعلق بها في الفصل الأول من الكتاب (ص ٦-٧٢)، وبدأ بمباحثه بعبارة مضللة، وهي قوله (ص ٦): "ليس هناك نص موحد للقرآن، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته أولى مراحل تفسيره"، وهو يقصد بقوله بعدم وجود نص موحد للقرآن القراءات القرآنية، وهذه عبارة مضللة كما قلت، فالقراءات ليست أكثر من اختلاف القراء في نطق كلمات لا تتجاوز نسبتها عشرة في المئة من مجموع كلمات القرآن، وهي في جميع صورها لا تقدّم نصّاً مختلفاً للقرآن الكريم.

وناقش جولدتسيهر في هذا الفصل عددًا من القضايا المرتبطة بالقراءات القرآنية، وقسمه على قسمين، بدأ القسم الأول منهما بالحديث عن أثر الخط في نشأة القراءات (ص ٨-١٥)، وهو موضوع هذا البحث، ثم تحدّث عن القراءات التفسيرية المنسوب أكثرها إلى عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب، بزيادة كلمة أو استبدالها (ص ١٥-٤٦)، وختم هذا القسم بالإشارة إلى آيات فيها تباين إعرابي، مثل (لكن الراسخون في العلم منهم... والمقيمون الصلاة) [النساء ١٦٢].

وتحدّث في القسم الثاني (ص ٤٨-٧٠) عما عبر عنه بحرية القراءة للنص الكريم، وأورد روايات غير مشهورة تشير إلى زيادة أو تغيير في النص، مثل الرواية التي تذكر أن علياً رضي الله عنه قرأ: ﴿وَطَلَّحَ مَنْضُودٌ﴾ [الواقعة ٢٦]، وذكر أن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف قد أضفى الشرعية على القراءات القرآنية، لكن بحدود وشروط تُقيّد ما سماه حرية القراءة، في مقدمتها أن تكون القراءة مروية، وصارت القراءات المقبولة سبعة، واستطرد إلى محاولات الخروج على ذلك التقليد، وذكر قصة ابن شَنَبُوذ الذي قرأ بما رُوِيَ من قراءات مخالفة لخط المصحف، وقصة ابن مقسم

(١) إجناتس، جولدتسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص ٧.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب المصاحف، ص ٤.

(٣) قال برجشتراسر في الجزء الثالث من الكتاب (ص ٦٦٨): "لم يحدث في القراءات السبعة (كذا) إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الخط الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف"، وكأنه ينفي في هذا القول أن يكون لتجرّد الخط أثر كبير في نشأة القراءات القرآنية، ذلك الأثر الذي بالغ فيه جولدتسيهر.

(٤) ينظر: إجناتس، جولدتسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص ٦.

الخط الذي قرأ بما يجوز في العربية، وإن لم يكن له رواية، وكلا الموقفين يدلان على أن حرية القراءة التي يتحدث عنها جولدسيهر لم تكن منهجاً معتمداً مهما كانت مكانة مدعيها العلمية.

والذي يعنينا من موضوعات هذا الفصل هو حديثه عن أثر مجرد الخط في نشأة القراءات، وهو أكثر جوانب الفصل إثارة وخطورة، حيث قال: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصيلة ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوفاً أصلاً، أو لم تُتَحَرَّ الدقة في نقطه أو تحريكه"^(١).

وقدّم بعد قوله هذا أمثلة حاول الاستدلال بها على أثر الخط في نشأة القراءات، فذكر من الأمثلة التي أرجعها إلى عدم وجود نقط الإعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة في الرسم :

١. في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مَّجْمُعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٤٨]، ذكر أن بعضهم قرأ (تَسْتَكْبِرُونَ) بالثاء بعد الكاف.

٢. وفي نفس السورة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [٥٧]، قرئت (نُشْرًا) بالنون بدل الباء.

٣. وفي سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [١١٤]، بالياء، ذكر أن حماداً الراوية قرأ (أباه) بالباء الموحدة.

٤. وفي سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلَقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [٩٤]، قرئت (فَتَبَيَّنُوا).

٥. وفي سورة البقرة: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [٥٤]، ذكر أنها قرئت (فَأَقِيلُوا أَنْفُسَكُمْ).

٦. وفي سورة الفتح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٩-٨]، ذكر أنها قرئت (وَتُعَزِّرُوهُ)^(٢).

وذكر من الأمثلة التي استدلت بها في أثر عدم وجود علامات الحركات في الخط على نشأة بعض القراءات :

٧. في سورة الحجر: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [٨]، قرئت: (نُنَزِّلُ وَتُنَزِّلُ).

٨. في سورة الرعد: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [٤٣]، ذكر أن عدة قراءات وردت في هذه الآية: (وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ)، و (وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ).

(١) إجنيس، جولدسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨-٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٩-١٣.

٩. في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [٦]، ذَكَرَ أَنَّ (أَرْجُلَكُمْ) قُرِئَتْ بكسر اللام أيضاً^(١).

إن الأمثلة التي أوردها جولدتسيهر خلط فيها بين القراءة الصحيحة المتواترة وبين القراءة الشاذة أو التي لم يُعَرَفْ أن أحداً رواها أو قرأ بها. فالمثالان رقم (٢ و ٤) هما قراءتان صحيحتان، فقد قرأ عاصم (بُشْرًا) في الأعراف [٥٧] بضم الباء وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين (نُشْرًا)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها وإسكان الشين (نُشْرًا)، وقرأ الباقر بالنون وضمها وضم الشين (نُشْرًا)، وكذلك قرؤوا في الموضعين الآخرين في الفرقان [٤٧] والنمل [٦٣]^(٢)، وفي قوله سبحانه في النساء [٩٤] في الموضعين، وفي الحجرات [٦] قرأ حمزة والكسائي وخلف في الثلاثة المواضع: (فَتَبَيَّنُوا)، وقرأ الباقر: (فَتَبَيَّنُوا)^(٣). كذلك رقم (٩) فإن كلا القراءتين صحيحة، فقد قرأ كل من نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص (وأرجلكم) في المائدة [٦] بنصب اللام، وقرأ الباقر بالخفض^(٤).

وإلى جانب هذه القراءات الصحيحة أورد جولدتسيهر قراءات شاذة وغير معروفة ومنكرة في الأرقام (١) - (٣) - (٥) - (٦). وخلط قراءات صحيحة وأخرى شاذة في رقم (٧ و ٨)^(٥). وما ثبت من قراءات في هذه المواضع هو المعتمد، وما سواه شاذ بل هو منكر لا يعد قراءة، فقد نص جولدتسيهر في رقم (٣) أن حمّادًا الراوية قرأ (أباه) بالباء.

إن القراءة التي ينسبها جولدتسيهر إلى حماد الراوية ما هي بقراءة ولكنها من تصحيفات حماد في القرآن، فقد ذكر أبو أحمد العسكري^(٦)، وحمزة بن الحسن الأصفهاني^(٨)، أن حمادًا الراوية قرأ يومًا: (والغاديات صبيحًا) وأن بشارًا الأعمى سعى به إلى عقبة بن سلم، أمير البصرة، أنه يروي جُلَّ أشعار العرب ولا يحسن من القرآن غير أم الكتاب، فامتحنه عقبة بتكليفه القراءة في المصحف، فصَحَّفَ فيه عدة تصحيفات، وقد ذكر العسكري في كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) أن الكوفيين يروون أن حمادًا الراوية كان حَفِظَ القرآن من المصحف فكان يصحف نيِّمًا وثلاثين حرفًا^(٩).

وأكتفي هنا بعرض وجهة نظر جولدتسيهر في هذه القضية، وسوف أعود لمناقشتها في المبحث الأخير من هذا الفصل، إن شاء الله.

(١) المصدر نفسه ص ١٣-١٤.

(٢) أبو الخير محمد، ابن الجزري: النشر، ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٥١.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٢٥٤.

(٥) ينظر: عبد الفتاح القاضي: القراءات في نظر المستشرقين والمحدثين، دار مصر للطباعة، ١٤٠٢ هـ، ص ٩٨ و ٩٩ و ١٠١ و ١٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧ و ١٠٩.

(٧) أبو أحمد الحسن، العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٦٣، ص ١٢.

(٨) حمزة بن الحسن، الأصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢، ص ٥-٦.

(٩) ينظر: أبو أحمد الحسن، العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، ص ١٢.

المطلب الثالث: نظرية نشأة القراءات عند المستشرقين بعد جولدتسيهر

ردد عدد من المستشرقين تلك الفكرة، بعد جولدتسيهر^(١)، وهم ما بين مؤيد لها، ومقلل من شأنها في ظهور القراءات، مثل قول المستشرق الألماني أوتو برتزل في مقدمة تحقيق كتاب التيسير في القراءات السبع للداني، الذي صدرت طبعته الأولى في إستانبول سنة ١٩٣٠ م: "والذي حملنا على اتباع الرسم القديم أنه هو الذي أدى إلى اختلاف طائفة من القراء، لأن الكلمة المكتوبة بالرسم القديم ربما احتملت قراءتين أو أكثر"^(٢).

ومثل ذلك قول المستشرق الأسترالي آرثر جفري (ت ١٩٥٩ م) في مقدمة تحقيق كتاب المصاحف لابن أبي داود الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة ١٩٣٦ م، وهو يتحدث عن المصاحف العثمانية: "كانت هذه المصاحف كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارئ نفسه أن ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الآيات، ومثال ذلك (بعلمه)، كان الواحد يقرأها (يُعَلِّمُهُ)، والآخر (نُعَلِّمُهُ) أو (تُعَلِّمُهُ) أو (بِعَلِّمِهِ) إلخ، على حسب تأويله للآية، فكان حينئذ لكل قارئ اختيار في الحروف، وكذلك اختيار في الشكل أيضاً"^(٣).

ويبدو من كلام برجستراسر في الجزء الثالث من كتاب (تاريخ القرآن) الذي صدر سنة ١٩٣٧ م بعد وفاته، أنه لا يوافق جولدتسيهر في قوله: إن الرسم هو السبب الرئيسي لنشأة القراءات، فقد قال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم، أي الحروف بدون نقط"^(٤).

وجاء كلام برجستراسر هذا بعد دراسة تحليلية لوجوه القراءات القرآنية، مبتدئاً بالظواهر الصوتية الخاصة بما يسمى بالأصول، مثل: الإدغام، والهمز، والمد، والإمالة، ونحوها^(٥)، ثم تحدّث عن وجوه اختلاف القراء السبعة في فرش الحروف، وقال بأن تلك الاختلافات تعبر عن ظواهر لغوية تتعلق باختلاف حالات الإعراب، وأزمنة الأفعال، وبنائها للمعلوم أو المجهول، وأبنية الأفعال المجردة، أو المضعفة، أو المزيدة بهمزة التعديّة، أو ألف المفاعلة، واختلاف حركة عين الفعل المضارع، وأبنية المصادر، وأوزان جموع التكسير، ونحو ذلك، مما لا علاقة له بالنقط والشكل.

(١) اعتمد كاتب مادة (القرآن) في الموسوعة البريطانية على كلام جولدتسيهر في الحديث عن القراءات القرآنية (ينظر: فضل حسن عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص ٢٢٣).

(٢) مقدمة تحقيق كتاب التيسير، ص ي.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب المصاحف، ص ٧.

(٤) تيودور، نولدكه: تاريخ القرآن، نيويورك، دار نشر جورج ألز، ٢٠٠٠، ص ٦٣١.

(٥) ينظر: تيودور، نولدكه: تاريخ القرآن، ص ٦٢٤-٦٢٨.

وبعد أن فرغ برجستراسر من ذكر وجوه اختلاف القراءات، وما تمثله من ظواهر لغوية، ذكر النتيجة التي تقدّمت، والتي تؤكد أن تجرّد خط المصحف لم يكن السبب الرئيسي لنشأة القراءات القرآنية، وهو ما ينقض نظرية جولدتسيهر من أساسها، على يد واحد من جيل تلامذته، ذي معرفة تامة بالقراءات القرآنية، واللغة العربية.

ولم تتوقف الإشارة إلى تلك النظرية في كتابات المستشرقين وأحاديثهم عن القراءات القرآنية، وإذا كانت أعمالهم في القرون الأخيرة لم تشتهر باللغة العربية فإن هناك إشارات تؤكد استمرارهم بتبني الفكرة والاعتماد عليها عند الحديث عن أصل القراءات القرآنية^(١).

وآخر من صرح بتلك النظرية منهم المستشرق فرانسوا ديرويش أستاذ كرسي (تاريخ القرآن) في الكولج دو فرانس في باريس، الذي تأسس سنة ٢٠١٥م، في محاضراته التي ابتداءً بإلقائها في أبريل (نيسان) ٢٠١٥م، وقد ترجم خلاصتها الدكتور عبد الرزاق إسماعيل هرماس في ملتقى أهل التفسير في (ملتقى الانتصار للقرآن)^(٢).

قال الدكتور ديرويش في المحاضرة الأولى بتاريخ ٢/٤/٢٠١٥م، وهو يتحدث عن مصاحف القرن السابع الميلادي (الأول الهجري):

١. إن المصاحف في القرن السابع الميلادي (الأول للهجرة) كتبت بطريقة قاصرة وبدون طريقة موحدة في الإملاء.

٢. كما اختلفت كتابتها باختلاف النسخ.

٣. هذا إضافة إلى عدم ضبط حروف العلة فيها، ونتج عن ذلك الاختلاف بين القرآن المتلو والقرآن المكتوب، فكان ذلك سبباً لظهور اختلاف القراءات القرآنية.

وأعاد الإشارة إلى تلك النظرية في المحاضرة الرابعة التي ألقاها بتاريخ ١٩ مايو ٢٠١٥م، وادعى فيها أن اختلاف القراءات ناتج عن أخطاء ارتكبها نساخ غير مؤهلين، بزعمه.

وقد لا يكون ديرويش آخر من يردد هذه النظرية من المستشرقين، وليس ثم جديد عند المتأخرين منهم على ما ذكره المتقدمون حولها، ولا يقال لهم إلا ما قيل للمتقدمين منهم.

(١) وقفتُ على إشارات غير صريحة في كتاب (القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره) لبلاشير إلى أثر الخط في نشأة القراءات، من مثل قوله (ص ٣٣): "إن النص المكتوب يرشد القارئ، ويجنب قلب الألفاظ والإغفال واللبس، ولكنه غير كاف لجعل نطق القارئ كاملاً". وقوله (ص ١٠٧): "كان هذا الخط بمظهره الناقص يثير ويحدث الغموض في النص، فكان النص لهذا السبب مدعاة لفطنة القراء".

(٢) وهذا رابط الموقع: <https://vb.tafsir.net/tafsir45327/#.WktowLcjTIU>

المبحث الثالث

وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية

قد يطول الحديث عن أصل القراءات القرآنية إذا تتبعنا كل تفاصيل الموضوع في المصادر الإسلامية، بما لا يتسع له البحث، ومن ثم فإني سوف أُلخِّصُ وجهة النظر التي تعرضها تلك المصادر فيما يتعلق بأصل القراءات القرآنية، لنوازن بينها وبين النظرية الاستشراقية حول أصل القراءات، في خمس مطالب مختصرة، هي:

المطلب الأول: نزول القرآن بلغة قريش

تؤكد أقوال عدد من الصحابة رضي الله عنهم على أن القرآن نزل بلغة قريش، مثل رسالة عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود، بأن يقرئ القرآن بلغة قريش^(١)، وقول عثمان للصحابة الذي نسخوا المصاحف بأن يكتبوه بلغة قريش^(٢)، وهناك شواهد لغوية وتاريخية أخرى تؤكد هذه المقولة^(٣).

إن القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش يتوافق مع شواهد التأريخ وطبيعة اللغات البشرية، والعقل يقتضي أن تكون لغة أهل مكة ذات خصائص لغوية متجانسة، وأن لغة النبي صلى الله عليه وسلم كانت متطابقة مع تلك اللغة، وأن معنى نزول القرآن بلغة قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن ويبلغه على نحوٍ يطابق نطق العربية السائدة في مكة، وكان أهل مكة يسمعون منه القرآن، ولا يستشكلون ذلك النطق، كما أنهم لا يصعب عليهم تقليده.

المطلب الثاني: نشأة القراءات في ظل رخصة الأحرف السبعة

كان الإسلام خطاباً للبشرية كلها، ودعوة للناس كافة، وكان أول من حُوِّطَ بها العرب في الجزيرة، ولم تكن لغاتهم واحدة، ويمكن للدارس أن يُقسِّمَ تاريخ قراءة القرآن في عصر النبوة على فترتين: المكية والمدنية، وذلك بالاستناد إلى التنوع اللغوي للمخاطبين وعدمه، ففي الفترة المكية كان هناك تجانس لغوي بشكل عام بين المؤمنين الداخلين في الدين، فمعظمهم من أهل مكة، وسُكَّانُ مكة هم من قبيلة قريش، فلم يكن يصعب عليهم تلاوة القرآن بالنطق الذي يتلقون به القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الفترة المدنية حدث تغيير من ناحيتين: الأولى: دخول أفراد من قبائل عربية شتى في الإسلام، من بيئات لغوية مختلفة، والثانية: ازدياد أعداد الداخلين في الدين، خاصة بعد فتح مكة، حين تقاطرت وفود القبائل على المدينة من أقطار الجزيرة العربية، وقد اعترضت بعض هؤلاء صعوبات في تعلمهم قراءة القرآن بسبب الاختلاف اللغوي، أو بسبب عوامل أخرى كالأمية، فقد أخرج الترمذي عن أبي بن كعب، قال: "لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جبريل، فقال: يا جبريل إني

(١) ينظر: عمر، ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة ٧١١/٢، و١٠١٠/٣.

(٢) ينظر: صحيح البخاري ١٨٠/٤ (رقم الحديث ٣٥٠٦)، وينظر: ١٨٢-١٨٣.

(٣) تناولت هذه القضية بالتفصيل في بحثي الموسوم (تكوّن العربية الفصحى) المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٤٨، السنة ١٩٩٥ م، وأعدت نشره في كتاب أبحاث في العربية الفصحى، دار عمار، عمان ٢٠٠٥ م، ص ٥٣-١١٧.

بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ: فيهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف^(١).

ولم يدع النبي ﷺ تلك العوائق تحول دون تعلّم أصحابه القرآن الكريم، ولم يحملهم على تعلم نطق قريش إذا عجزوا عن تحقيقه بكل خصائصه، ولكنه أقرأ كل قوم بلغتهم، وعبر عن تلك الرخصة في القراءة بقوله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه"، وهو حديث صحيح مشهور في كتب السنّة.

قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ = ٨٨٩م): "فكان من تيسيره [عز وجل]: أَنْ أَمَرَهُ بِأَنْ يُقْرَأَ كُلُّ قَوْمٍ بِلُغَتِهِمْ، وما جرت عليه عاداتهم... ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات"^(٢).

والراجح أن الرخصة في القراءة كانت بعد الهجرة، قال ابن حجر: "فقد ثبت أن ورود التخفيف بذلك كان بعد الهجرة"^(٣). وهذا أمر يقوئ مذهب من يقول إن الرخصة كانت بسبب اختلاف اللغات، لأن أكثر من أسلم بعد الهجرة كان من القبائل العربية من غير قبيلة قريش التي نزل القرآن الكريم بلسانها.

وقد تحدّث علماء القرآن والحديث عن معنى الأحرف السبعة، وتعددت فيه الأقوال، إلا أنها تدور حول الرخصة في القراءة، ويكفي أن أشير هنا إلى النتيجة العملية لتلك الرخصة، وهي ظهور القراءات القرآنية التي قرأها الصحابة رضي الله عنهم.

وتلزم الإشارة هنا إلى المنهج النبوي في تعليم قراءة القرآن، ويتلخص في قوله ﷺ: (اقروا كما علمتم)^(٤)، وترجمه الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم إلى منهج عملي التزموا به في تعليم القراءة، فكانوا يرددون قول زيد بن ثابت: (القراءة سنّة)^(٥)، وأكتفي بنقل ما قاله أبو عمرو بن العلاء البصري حين سأله أبو زيد الأنصاري: أكل ما قرأت به سمعته؟ فقال: لو لم أسمعته من الثقات لم أقرأ به؛ لأنّ القراءة سنّة^(٦).

المطلب الثالث: نسخ المصاحف العثمانية، وأثره في القراءات

لم تكن قراءة الصحابة في زمن النبي ﷺ موحدة، فقد كان بينهم تباين في طريقة الأداء، يرجع إلى ما رخص لهم به رسول الله ﷺ بقوله: (إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه)، واستمر الصحابة في عصر الخلافة الراشدة يقرؤون القرآن على نحو ما كانوا يقرؤونه في زمن النبي ﷺ، وأخذ عنهم التابعون ذلك.

(١) سنن الترمذي ٥/ ٤٤، رقم الحديث (٢٩٤٤).

(٢) عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٩-٤٠.

(٣) أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني: فتح الباري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩، ٢٨/٩.

(٤) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن، ص ٣٤٦ و ٣٦١، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٢٠٠ (رقم الحديث ٨٣٢)، وابن مجاهد: السبعة، مصر، دار المعارف، ١٤٠٠هـ، ص ٤٧.

(٥) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن، ص ٣٦١، وابن مجاهد: كتاب السبعة، ص ٤٩-٥٠، وسليمان، بن أحمد، الطبراني: المعجم الكبير، القاهرة، دار ابن تيمية، ١٣٣/٥.

(٦) ينظر: الداني: جامع البيان في القراءات السبع، جامعة الشارقة، ٢٠٠٧، ١/ ١٤٨.

وبرز الاختلاف في القراءة، وكَثُرَ الجدل حولها بين جيل التابعين، والصحابة لا يزالون بين أظهرهم، مما حمل الخليفة الثالث عثمان بن عفان على أن يأمر بنسخ المصاحف من الصحف، وتفريقها في الأمصار، وتحريق ما سواها، وقد قال عثمان للذين أمرهم بنسخ المصاحف: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم)، وذلك لضمان كتابته باللفظ المنزل على رسول الله ﷺ، دون ما جاءت به رخصة الأحرف السبعة من وجوه النطق المختلفة.

وكان نسخ المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتوزيعها على الأمصار قد أسس لمرحلة جديدة في قراءة القرآن الكريم، تعتمد على ما رُسِمَ في المصاحف العثمانية، قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ = ٨٨٩م): "كل ما كان موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك في ما خالفه"^(١). وقال مكي: "وسقط العمل بالقراءات التي تخالف خط المصحف، فكأنها منسوخة بالإجماع على خط المصحف"^(٢).

المطلب الرابع: الاختيار في القراءة وآثاره

كانت مدارس القراءة قد بدأت تتشكل حول المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى كل مصر من الأمصار الخمسة، فتلقى التابعون القراءة عن علماء القراءة من الصحابة، وأدَّوْها إلى تابعي التابعين، وهكذا تناقلت أجيال الأمة قراءات القرآن عبر العصور، لكن رواية القراءات في القرن الأول والثاني خضعت لظاهرة جديدة تركت آثارها على القراءات، وهي "ظاهرة الاختيار" في القراءة.

وكلمة (الاختيار) تدل على المفاضلة بين أمرين أو أكثر، واصطفاء أحدهما، وصارت للكلمة في علم القراءات دلالة أكثر تحديداً، وهي التعبير عن قيام قارئ للقرآن باعتماد وجه من وجوه القراءة المروية، في كل حرف من حروف القرآن المختلف في قراءتها، في تعليمه القرآن وتلاوته له، فيقال: اختيار فلان، أي قراءته التي اختارها. قال مكي: "وهؤلاء الذين اختاروا إنما قرؤوا لجماعة، وبروايات، فاختر كل واحد مما قرأ وروى قراءة تُنسب إليه بلفظ الاختيار"^(٣).

وكانت ظاهرة الاختيار في القراءة قد تركت آثاراً عميقة في تشكيل القراءات بالشكل الذي استقرت عليه منذ عصر ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ = ٩٣٦م)، ومن أهمها ما يأتي:

(١) امتزاج قراءات الأمصار:

كانت قراءات الأمصار متميزة بعضها عن بعض، فكانت تغلب على أهل كل مصر قراءة من قراءات القراء المشهورين من الصحابة، فكانت في المدينة قراءة زيد بن ثابت، وفي الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود، وفي البصرة قراءة أبي موسى الأشعري، وفي الشام قراءة أبي الدرداء، وقد تداخلت هذه القراءات في عصر التابعين وتابعيهم.

(١) عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص ٤٢.

(٢) مكي بن أبي طالب، القيسي: الإبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٠، ص ٤٢.

(٣) نفسه، ص ٤٩، وينظر: الداني: جامع البيان ١/١٢٩-١٣٠، وابن الجزري: النشر ١/٥٢.

ولم يكن أثر الاختيار يقف عند حد اختفاء اسم: زيد، وعبد الله، وأبي، وغيرهم من الصحابة، وظهور اسم نافع وعاصم وحمزة وغيرهم، وإنما يتجاوز ذلك إلى انتقال وجوه القراءات من قراءة إلى أخرى، بما لا يقع تحت الحصر، ولكن يمكن أن يكون ذلك واضحاً من خلال ظاهري الهمز والتسهيل، والفتح والإمالة، فالهمز والإمالة ظاهرتان تغلبان على قراءة أهل العراق الأولى، والتسهيل والفتح يغلبان على قراءة أهل المدينة القديمة، وأدت ظاهرة الاختيار إلى انتقال الهمز إلى قراءة أهل المدينة، وظاهرة الفتح إلى قراءة أهل العراق.

(٢) ازدياد عدد القراء والقراءات:

كان عدد القراء من الصحابة الذين تصدّروا للإقراء واشتهرت قراءتهم لا يتجاوز العشرة، لكن عدد القراء أصحاب الاختيارات تضاعف في عصر التابعين وتابعي التابعين، وبلغوا العشرات، بسبب اتساع بلاد المسلمين، وازدياد الحاجة إلى التعليم، واستقر في عُرْفهم أن من يتصدى للإقراء له أن يختار قراءة يُعلِّمها من يقرأ عليه، واكتفى بعضهم برواية قراءة شيخه، وكانت النتيجة ظهور عشرات الاختيارات في القراءات، في القرون الثلاثة الأولى.

وانعكس ذلك على كتب القراءات القديمة، فكان كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ = ٨٣٩م) يضم خمسين وعشرين قراءة، وكان كتاب إسماعيل القاضي (ت ٢٨٢هـ = ٨٩٥م) فيه عشرون قراءة، وجاء بعده محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ = ٩٢٢م) وجمع في كتابه في القراءات نيفاً وعشرين قراءة^(١)، ولا تضم هذه الكتب جميع أصحاب الاختيارات من تلك الفترة.

وأدرك ابن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ = ٩٣٦م) ما أدت إليه ظاهرة الاختيار من كثرة القراءات، فامتنع عن اختيار قراءة تُنسب إليه، فقد نقل تلميذه أبو طاهر بن أبي هاشم أن رجلاً سأل ابن مجاهد: "لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يُحمَلُ عنه؟ فقال: نحن أحوج إلى أن نُعملَ أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا، أحوج منا إلى اختيار حرف يُقرأ به من بعدنا"^(٢).

(٣) ظهور مصطلح القراءات السبع:

انحسرت ظاهرة الاختيار بعد رفض ابن مجاهد اختيار قراءة تسمى باسمه، لكن أثر الظاهرة كان ماثلاً أمام نظر ابن مجاهد، وما يمثله من عبء على المتعلمين للقراءات، فأقدم على دراسة الاختيارات وصنّفها إلى صنفين: الاختيارات الصحيحة المشهورة، والاختيارات الشاذة المهجورة، وألف كتابين: الأول (كتاب السبعة) الذي ضمّنه اختيارات القراء السبعة المشهورين، وهم: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر. والثاني: كتاب (شواذ السبعة) الذي ضمّنه بقية الاختيارات التي لم تشتهر شهرة السبعة^(٣).

(١) ينظر: ابن الجزري: النشر ١/ ٣٤.

(٢) محمد بن أحمد، الذهبي: معرفة القراء، إستانبول، مركز البحوث الإسلامية، ١٩٩٦، ١/ ٢١٧.

(٣) ينظر: ابن جني: المحتسب، القاهرة، ١٩٦٦، ١/ ٣٢ و ٣٥.

ووصف ابنُ الجزري ابنَ مجاهد بأنه (أَوَّلُ مَنْ سَبَّعَ السَّبعة) ^(١)، ولم يكن يُعرَفُ قبل ابن مجاهد مصطلح القراءة السبعة، ولا القراءات السبع، لكنه اشتهر بعد ابن مجاهد، حتى عدَّ بعضهم ما عدا السبع شاذًا ^(٢)، وكثرت المؤلفات في السبع، ثم أُضيفَتْ إليها ثلاث قراءات هي قراءة: أبي جعفر، ويعقوب، وخلف. فصارت القراءات المتواترة عشرًا، وما عداها شاذ.

المطلب الخامس: أركان القراءة الصحيحة

احتاج علماء القراءة إلى ضوابط محددة في تمييز القراءة الصحيحة المقبولة من الشاذة المتروكة، فليس كل قراءة مروية عن الصحابة تجوز القراءة بها، وليس كل قراءة وافقت المصحف تصح القراءة بها، وكان أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ = ٨٣٩م) قد ذكر أركان القراءة الصحيحة، وطَبَّقَهَا في كتابه في القراءات الذي يُعدُّ أول كتاب جامع لها ^(٣)، كما في النص الذي نقله عنه أبو بكر بن الأنباري، وهو يتحدث عن هاء الوقف أو السكت في القرآن الكريم، وكيفية الوقف عليها، فقال: "وقال أبو عبيد القاسم بن سلام الأَسَدِيُّ: الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء بالتعمد لذلك، لأنها إذا أُدْرِجَتْ في القراءة مع إثبات الهاء كان خلاف الكتاب، فإذا صار قارئها إلى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة، وهي:

- أن يكون مصيبًا في العربية.

- وموافقًا للخط.

- وغير خارج من قراءة القرآن" ^(٤).

وكان محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ = ٩٢٢م) قد ألمح كثيرًا إلى أركان القراءة الصحيحة في تفسيره، وقد صرَّح بها في كتابه (الجامع في القراءات)، الذي أشار إليه في مقدمة تفسيره، كما نقل ذلك عنه المتتوري في شرح الدرر اللوامع حيث قال: "وقال الطبري في الجامع: ثم كُلُّ مَنْ اختار حرفًا من المقبولين من الأئمة، المشهورين بالسُّنَّةِ والاعتداء بِمَنْ مضى من علماء الشريعة، راعى في اختياره:

الرواية أَوَّلًا.

ثم موافقة المصحف الإمام ثانيًا.

ثم العربية ثالثًا.

فَمَنْ لم يُراعِ الأشياء الثلاثة في اختياره لم يُقبَلِ اختيارُهُ، ولم يتداوله أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة" ^(٥).

(١) أبو الخير محمد، ابن الجزري: غاية النهاية، المطبعة الرحمانية، ١٣٥١هـ، ١/ ١٣٩.

(٢) ينظر: ابن النديم: الفهرست، طهران، ١٩٧١، ص ٣٣.

(٣) ذهب بعض المعاصرين إلى أن ابن مجاهد هو الذي وضع أركان القراءة الصحيحة (ينظر: شوقي ضيف: مقدمته لكتاب السبعة ص ١٧)، ونسب برجستراسر في تاريخ القرآن (ص ٥٨٧) إلى مكِّي بن أبي طالب صياغة ما سواه بالمعايير الثلاثة، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أبو بكر محمد، ابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧١، ١/ ٣١١.

(٥) محمد بن عبد الملك، المتتوري: شرح الدرر اللوامع، ط ١، ٢٠٠١، ص ٨٦٤.

واشتهرت أركان القراءة الصحيحة هذه، واستند إليها علماء القراءة في تمييز القراءة الصحيحة من الشاذة، قال مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ = ١٠٤٥م) وهو يتحدث عن أقسام القراءات: "قسم يُقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهي: أن يُنقل عن الثقات إلى النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً، ويكون موافقاً لخط المصحف"^(١).

ولعل في هذا العرض الموجز ما يوضح أصل القراءات القرآنية الذي نشأت عنه، وهو التلقي عن الصحابة، الذين تعلموا القرآن وقراءاته عن رسول الله ﷺ، وأخذها عنهم التابعون وتابعوهم، ولم يخترعها القراء السبعة ولا غيرهم من القراء، ولم تكن ناتجة عن عجز القراء كيف يقرؤون في المصحف، بسبب تجرد الخط من العلامات، كما ذهب إلى ذلك المستشرقون، وآمل أن تتضح الحقيقة أكثر من خلال الموازنة بين المذهبين في المبحث الآتي.

المبحث الرابع

الموازنة بين المذهبين والترجيح بينهما

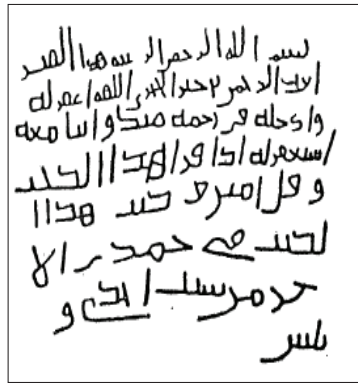
اتضح من خلال العرض السابق وجهتا النظر في أصل القراءات القرآنية، وجهة النظر الاستشرافية التي تقول بأن السبب الرئيسي لنشأة القراءات القرآنية هو تجرد خط المصاحف الأولى من النقط والشكل، فكان على القارئ أن يقوم بتنقيط الحروف وتشكيل الحركات بما يتناسب وسياق الكلمات، ومن ثم اختلف القراء في قراءة كثير من الكلمات. ووجهة نظر المصادر الإسلامية التي تقول بأن القراءات القرآنية جاءت نتيجة لرخصة الأحرف السبعة التي عبر عنها الحديث النبوي الشريف: (إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه)، فاختلفت قراءات الصحابة تبعاً لذلك، بحسب اختلاف لغاتهم، وأخذ التابعون عنهم تلك القراءات، وبعد نسخ المصاحف العثمانية قرأ أهل الأمصار بما يحتمله الخط، وتُرِكَت القراءة بما يخالفه، وكثُرَت اختيارات القراء في القرن الثاني والثالث، وكانت تلك الاختيارات تخضع لثلاثة شروط: أن تكون القراءة منقولة عن الصحابة، وأن يحتملها خط المصحف، وأن تكون قوية الوجه في العربية. واقتصر ابن مجاهد في أول القرن الرابع على سبع قراءات، وأضيفت إليها في فترات لاحقة ثلاث أخرى، فانحصرت القراءات الصحيحة بعشر قراءات، وما عداها صار شاذاً، يُروى في مسائل التفسير واللغة، ولا يُقرأ به.

المطلب الأول: الخلفية التاريخية للنظرية الاستشرافية

إن وجهة النظر الاستشرافية في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي تقوم على أساس مادي مجرد من أي بُعد روحي أو غيبي، وجاءت نظريتهم في تفسير نشأة القراءات القرآنية متأثرة على ما يبدو بتلك الخلفية التاريخية، فهي عندهم تشبه قراءة النصوص القديمة، التي اختلف المتخصصون في قراءتها بسبب تجردها من النقط والشكل، ونحن حين نناقش هذه النظرية نحاول أن نستخدم نفس الأدوات التي استخدموها، ولكن برؤية تستند إلى الحقائق التي شكلت ذلك التاريخ. ويمكن أن نوضح وجهة النظر الاستشرافية من خلال النظر في نقش شاهد القبر المؤرخ بسنة ٣١هـ المحفوظ في

(١) مكي: الإبانة، ص ٥١، وينظر: ابن الجزري: النشر، ٩/١.

متحف الفن الإسلامي في القاهرة، وسبقت الإشارة إليه وذكر المصادر التي تحدّثت عنه في المبحث الأول، والقصد هنا الوقوف عند بعض الكلمات التي اختلفت في قراءتها فيه^(١)، وهذه صورة النقش على الصخر، ومستخلصة منه:



وقد اختلفت في قراءة اسم صاحب القبر: (إبراهيم بن محمد بن علي)، هل هو: عبد الرحمن بن خير الحجازي، أو: عبد الرحمن بن جبر الحجازي؟ ورسم الحروف في النقش يحتمل القراءتين، لعدم وجود نقاط الإعجام فيه، ولا احتمال حذف الألف من كلمة (الحجازي) كما حُذفت من كلمة (الرحمان).

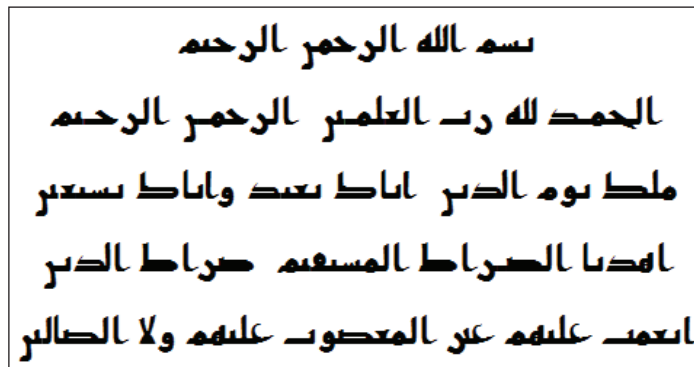
وكذلك اختلفت في قراءة: (واسامعه)، هل هي: وآتنا معه، أو: وإننا معه، أو: وإيانا معه؟

والسبب في هذا الاختلاف في قراءة النص يرجع إلى أمرين:

الأول: انقطاع الصلة بيننا وبين كاتبه، فلا ندري ماذا أراد أن يكتب.

والثاني: تجرد الخط من نقاط الإعجام التي تميز بين الحروف المتشابهة في الصورة، ومن علامات الحركات.

وليس الأمر كذلك بالنسبة للمصحف الذي كُتِبَ في الفترة التي يرجع إليها هذا النقش المؤرخ بسنة ٣١ هـ، فلم تنقطع الصلة بيننا وبين كاتب المصحف، وقد عرفنا ماذا أراد أن يكتب بالرواية المتصلة، وكيف كان يقرأ، ولو نظرنا في سورة الفاتحة في مصحف قديم مجرد، ووقفنا على القراءات في بعض ألفاظها لتبين لنا عدم صحة النظرية الاستشراقية في نشأة القراءات، وهذه سورة الفاتحة مكتوبة بالخط الكوفي القديم المجرد من العلامات:



(١) ينظر: كتابي: علم الكتابة العربية، ص ٤٨-٤٩.

وقد اختلف القراء السبعة في ثلاث كلمات في السورة، هي:

١. مالك، وملك

٢. الصراط، السراط، الزراط

٣. عَلَيْهِم، عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمُو

ولو كان الرسم سبباً لنشأة القراءات لما اختلف القراء في (مالك وملك)، لأن الرسم لا يَحتمِلُ إلا قراءة واحدة، وكذلك (الصراط، والسراط، والزراط) لا يَحتمِلُ الرسم إلا قراءة واحدة، ويرجع اختلاف القراء في حركة الهاء في (عليهم) إلى اختلاف العرب في حركة هاء الضمير، وليس بسبب تجرّد الرسم من الحركات.

ثم إن القراء لم يتعثروا في قراءة كلمة (الرحمن) ولا كلمة (العلمين) بسبب عدم وجود الألف في الرسم، ولم يقرأ أحد منهم الكلمتين بحسب رسمها، ولم يختلفوا في قراءة الكلمات الأخرى التي لم توضع النقاط أو الحركات على حروفها في السورة، والسبب في ذلك كله أن المصحف لم يكن نقشاً عُثِرَ عليه، واحتار الناس في قراءته، وإنما كان القرآن يُنْثَلَى بهذه القراءات قبل أن تُكْتَبَ المصاحف، وحين كُتِبَتِ المصاحف قرأ فيها المسلمون بما كانوا يحفظون ويقرؤون.

فالسبب في الاختلاف في قراءة النقوش هو انقطاع الصلة بين كاتب النقش وقارئه، ولم تنقطع الصلة بين كاتب المصحف وقارئه، فحين كُتِبَتِ المصاحف العثمانية وأُرْسِلَتْ إلى الأمصار أرسل الخليفة مع كل مصحف قارئاً يُعَلِّمُ الناس القراءة، وكان أهل الأمصار يقرؤون القرآن بما تلقوه عن معلمهم من الصحابة، حتى قبل وصول المصاحف العثمانية إليهم.

ومن ثمّ ليس صواباً قول جولدتسيهر: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدّم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط".

ولم يجد برجشتراسر قول أستاذه جولدتسيهر يستند إلى أساس علمي صحيح، ومن ثم حاول أن يعيد صياغته، فقال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم، أي الحروف بدون نقط".

ولا يعني ذلك أن برجشتراسر ينفي بالكلية أثر تجرّد الخط من العلامات في وجود بعض القراءات، لكنه لا يجعله السبب الرئيسي لنشأتها، كما ذهب إلى ذلك جولدتسيهر.

المطلب الثاني: القراءات القرآنية تعكس اتجاهات لغوية

إن ما نجده من قراءات قرآنية تختلف في نقاط الإعجام، أو حركات الإعراب أو بنية الكلمات، لم يكن سبب نشأتها تجرّد الخط، وإنما هو التلقي عن القراء الأوائل من الصحابة أولاً، وتعكس تلك القراءات اتجاهات لغوية كانت معروفة في ذلك الوقت، وأكتفي بمثال واحد يوضح ذلك، هو قراءات سورة المنافقون^(١):

(١) ينظر: الداني: التيسير، إستانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣٠، ص ٢١١، وابن الجزري: النشر ٢/ ٣٨٧-٣٨٨.

١. ﴿خُشِبٌ﴾ [٤]: قرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل عن ابن كثير (خُشِبٌ) بإسكان الشين، والباقون (خُشِبٌ) بضمها.
 ٢. ﴿لَوَوًا﴾ [٥]: قرأ نافع (لَوَوًا) بتخفيف، والباقون (لَوَوًا) بتشديد.
 ٣. ﴿وَأَكُنْ﴾ [١٠]: قرأ أبو عمرو وحده (وَأَكُونُ)، والباقون (وَأَكُنْ).
 ٤. ﴿يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١١]: قرأ أبو بكر عن عاصم (يعملون) بالياء، والباقون بالتاء.
- إن بعض هذه القراءات تحتل أن تكون بسبب تجرد الخط، فالكلمة الرابعة تتعلق بتنقيط الحروف، والأولى والثانية تتعلق بالتشكيل، وأما الثالثة ففيها زيادة حرف، وهي لا تحتل أن تكون بسبب تجرد الخط من العلامات.
- إن النظرية الاستشراقية تقول إن هذه القراءات ناشئة عن تجرد الخط من العلامات، بينما تقول وجهة نظر المصادر الإسلامية أن هذه القراءات قرأ بها الصحابة قبل كتابة المصاحف، في ظلال رخصة الأحرف السبعة.
- وهذه القراءات تعكس اتجاهات لغوية معروفة في كلام العرب، كما وَضَّحَ علماء توجيه القراءات، وليس ثَمَّ مجال للظن بأنها ناتجة من عدم معرفة القارئ كيف يقرأ لتجرد الخط من العلامات:
- قال ابن أبي مريم الشيرازي، وهو يتحدث عن (خُشِبٌ): "والوجه أَنَّ خُشِبًا وَخُشْبًا كَأُسْدٍ وَأُسْدٍ، وَطُنْبٍ وَطُنْبٍ، فَفَعْلٌ بضمين أَضْلُ، وَفُعْلٌ بضم الفاء وتسكين العين مُحَقَّفٌ منه، وهو مقيسٌ مُطَرِّدٌ سواءً كان واحدًا أو جمعًا"^(١)، وقال مكي: "والضم لغة أهل الحجاز"^(٢).
- وأما قراءة (لَوَوًا) بالتخفيف و(لَوَوًا) بالتشديد، فإن مجيء فَعْلٍ بالتخفيف بمعنى فَعَّلَ بالتشديد كثير في كلام العرب^(٣)، وقال مكي: "وفي التشديد معنى التكثير، أي: لَوَوَهَا مرة بعد مرة، وفي التخفيف معنى التقليل، ويصلح للتكثير أيضًا"^(٤).
- وأما قراءة (فَأَكُونُ) بالنصب، و(فَأَكُنْ) بالجزم فإنَّ مَنْ نَصَبَ عَطْفَهُ على لفظ (فَأَصْدَقَ)، وَمَنْ جَزَمَ حمله على موضع (فَأَصْدَقَ)، لأن موضعه الجزم، فالمعنى: إِنْ تَوَخَّرَنِي أَصْدَقُ^(٥).
- وأما قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فإن أكثر القراء قرؤوا (تعملون)، وقرأ أبو بكر شعبة عن عاصم (يعملون)، فهل قرأه بالياء لأنه لم يعرف كيف يقرأ، أو أخذ ذلك عن شيخه عاصم، عن زر بن حبیش وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي وزيد وابن مسعود من الصحابة؟
- الجواب الراجح، بل الصحيح، أنه قرأ كذلك لأنه أخذه عن شيخه كذلك، وقد قال مكي: "حمله على لفظ الغيبة

(١) نصر بن علي، الشيرازي: الموضح في وجوه القراءات وعللها، جدة، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، ١٩٩٣، ٣/ ١٢٧٠.

(٢) مكي بن أبي طالب، القيسي: الكشف ٢/ ٣٢٢.

(٣) ينظر: ابن جني: المحتسب ١/ ٢٣٨، و٢/ ٢١.

(٤) الكشف ٢/ ٣٢٢.

(٥) ينظر: أبو العباس أحمد بن عمار، المهدوي: شرح الهداية، الرياض، مكتبة الرشد، ص ٥٣٣.

التي قبله في قوله: (ولن يؤخر الله نفساً)، والنفس بمعنى الجماعة، فلذلك قال: (بما يعملون)، وقرأ الباقر بالتاء جعلوه خطاباً شائعاً لكل الخلق^(١).

المطلب الثالث: شواهد أخرى على بطلان النظرية الاستشرافية

أحسب أن الأساس الذي انبنى عليه القول بأن سبب نشأة القراءات هو تجرد الخط قد بان ضعفه، وأنه تعليل شكلي بل سطحي لظاهرة عظيمة تتعلق بالقرآن الكريم الذي حرصت أجيال المسلمين من لدن عصر الصحابة إلى زماننا على الحفاظ على نصه مصوناً من الاجتهادات والظنون، ومع ذلك فلعل من المفيد تعزيز هذه النتيجة بأدلة أخرى، قطعاً لكل خاطرة قد تخطر على البال، فتشوش على تلك الحقيقة التاريخية الواضحة^(٢).

أولاً: كانت القراءات القرآنية موجودة ومعروفة في زمن النبي ﷺ قبل أن تُكتَب المصاحف، وكانت قراءات الصحابة متعددة بفضل رخصة الأحرف السبعة، فلم يكن خط المصحف سبباً في وجود القراءات القرآنية أو اختلافها، ولكن الخط كان سبباً في حفظ الاختلاف الموجود أصلاً، لأن القراءة سُنة متبعة^(٣)، وكان الخط حين عُدَّت موافقته شرطاً في قبول القراءة مقياساً يمنع ما لا يدخل في نطاقه مما صَحَّ من الروايات، فالرسم لا يُنْشئ القراءة ولكنه يَحْكُم عليها^(٤).

ثانياً: تتضمن القراءات القرآنية قبل نسخ المصاحف العثمانية وجوهاً متعددة من النطق، خالف كثير منها خط المصاحف، ولو كان الخط سبباً لنشأة القراءات لانحصرت القراءات فيما يحتمله الخط فقط، ولما وجدنا قراءات مخالفة للرسم أو خارجة عليه، وهي كثيرة، ومثال القراءات المخالفة للخط قراءة من قرأ في الفاتحة (مالك) بالالف، و(السرائر) بالسين، و(عليهمو) بإلحاق الميم الواو، فمثل هذه القراءات لا يمكن أن تكون ناتجة عن الخط قطعاً، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك يطول ذكرها.

ثالثاً: لو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات لوجب قبول كل قراءة احتملها خط المصحف، فما دامت القراءات - بحسب زعمهم - اجتهاد القراء في قراءة المرسوم، فإنه لا فضل للواحدة منها على الأخرى، وفي قصة حماد الراوية (ت ١٥٥ هـ)^(٥) ما يدل على بطلان نظرية المستشرقين في أصل القراءات، فقد كان حماد مشغولاً برواية الشعر عن تعلم قراءة القرآن، فلما أراد أن يحفظ

(١) الكشف ٣٢٣/٢.

(٢) كانت كتابات جولدسيهر عن أثر تجرد الخط في نشأة القراءات مدعاة لكتابة عدد من الرسائل والكتب في الرد على نظريته، منها:

١. كتاب: رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم: دوافعها والرد عليها، للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط ٢، جدة، دار الشروق، ١٩٨٣ م.

٢. القراءات في نظر المستشرقين والمحدثين، للشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي، دار مصر للطباعة، ١٤٠٢ هـ.

٣. الرد على المستشرق اليهودي جولدسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، للدكتور محمد حسن جبل، ط ٢، كلية القرآن الكريم بطنطا ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣ م.

(٣) ينظر: عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٧١.

(٤) ينظر: عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية، دار القلم، ١٩٦٦، ص ٢١٠.

(٥) ينظر: الزركلي: الأعلام، بيروت، دار العلم، ١٩٨٠، ٢/ ٢٧١.

القرآن قَرَأَهُ في المصحف، فكان يُصَحِّفُ نَيْفًا وثلاثين حرفًا، منها: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل ٦٨] قرأها: يغرسون، و﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة ١١٤] قرأها: أباه، و﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا﴾ [مريم ٧٤]: قرأها: وزيًا، وغيرها^(١)، ذكرها الرواة وأثبتها المؤلفون في كتب التصحيف والتحريف، ولو كان الأمر كما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون لكان حماد أحد القراء المشهورين للقرآن.

ومثل ذلك قصة محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم العطار البغدادي (ت ٣٥٤ هـ) الذي عمَدَ إلى حروف من القرآن فخالف الإجماع فيها وقرأها على وجوه ذكر أنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم فأنكروه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء، فأذعن بالتوبة وكتب محضرًا بتوبته، وأثبت جماعة من حَضَرَ ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه^(٢).

فلو كانت القراءات ناتجة عن مجرد الخط لكان الأولى قبول قراءة حماد الرواية، الذي يروي جل أشعار العرب، وقراءة ابن مقسم الذي كان من كبار النحويين في بغداد، لكن القراءة سُئِنَتْ يأخذها الآخر عن الأول، حتى تنتهي إلى أصحاب رسول الله ﷺ.

رابعًا: كان منهج تعليم القرآن الكريم منذ زمن النبي ﷺ وأصحابه يعتمد على التلقي الشفهي، والحفظ في الصدور، قال ابن الجزري: "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب"^(٣)، ويُلَخَّصُ ذلك المنهج قول الصحابة والتابعين: "إنَّ القراءة سُئِنَتْ، يأخذها الآخر عن الأول"^(٤).

ومن الشواهد العملية على ذلك المنهج أن النبي ﷺ أرسل مصعب بن عمير من مكة إلى المدينة، ليعلم أهلها القرآن، قبل هجرته إليها، حين طلب أهلها منه ذلك^(٥)، ولم يرسل إليهم مصحفًا، وأنَّ عمر بن الخطاب أرسل إلى والي الشام ثلاثة من كبار الحفاظ والقراء من الصحابة، وهم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، حين طلب منه أن يعينه بمن يعلم أهل الشام القرآن^(٦)، ولم يرسل مصاحف إليهم، وحين كتب عثمان المصاحف لم يكتف بإرسالها إلى الأمصار، وإنما أرسل مع كل مصحف بقارئ يُعَلِّمُ الناس القراءة في ذلك المصحف^(٧).

(١) ينظر: العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، ص ١٢، والعطار: التمهيد، عان، دار عمار، ٢٠٠٠، ص ٢٥٢-٢٥٤.

(٢) ينظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣، ٢/٦٠٨، وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٦/٢٥٠٣-٢٥٠٤، وابن الجزري: غاية النهاية، ٢/١٢٤.

(٣) ابن الجزري: النشر، ٦/١.

(٤) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة، ص ٤٩-٥٥، وينظر: الداني: جامع البيان، ١/١٣٢-١٥٠.

(٥) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ١/٢١٩، و٣/١١٨، و٣/٦٠٤.

(٦) ينظر: المصدر نفسه، ٢/٣٥٦.

(٧) ينظر: إبراهيم بن عمر، الجعبري: جملة أرباب المراسد، دمشق، دار الغوثاني، ٢٠١٠، ص ٢٣٦.

خاتمة

لم تكن نظرية نشأة القراءات بسبب تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف العثمانية من النقط والشكل بمعزل عن فكرة أوسع عن قضايا القرآن الكريم يقول بها المستشرقون الذي كتبوا في تاريخ القرآن، تبدأ بنزع صفة الوحي الإلهي عن القرآن الكريم، وقد لا تنتهي بنفي التدوين المنظم والجمع الكامل لنصه، ولكنني خَصَصْتُ هذا البحث لدراسة تلك النظرية لكونها من القضايا التي ابتعد فيها المستشرقون عن الحقيقة العلمية والوقائع التاريخية، وهم يبحثون في تاريخ القرآن.

وقد بدأت البحث بتقرير حقيقة أن الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف العثمانية كان مجرداً من النقاط والحركات، ثم تبعت جذور النظرية عند المستشرقين، وتوقفت عند أكثرهم تفصيلاً لها وهو جولدتسيهر، الذي جعل تجرد الخط أهم أسباب نشأة القراءات.

وتوقفت عند حديث برجشتراسر عن الموضوع، وبدالي أنه لم يُرد أن يصرح بخطأ جولدتسيهر فيما ذهب إليه، حين قال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم"، وإن كان كلامه يؤدي إلى تلك النتيجة، فهو يرى أن كثيراً من ظواهر القراءات القرآنية ترجع إلى اتجاهات لغوية للعرب وقت تنزيل القرآن، ولم تكن ناتجة عن تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف.

وعرضت في البحث وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية، التي تتلخص في أن القراءات نتجت عن رخصة الأحرف السبعة، وأن الصحابة قد تلقوا القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ، وقرأوا القرآن بهذه القراءات، وأخذها عنهم التابعون مشافهة، وأن القراء المشهورين الذين تُنسب إليهم القراءات السبع أو العشر أخذوها عن التابعين، ولم تكن اجتهاداً منهم.

وختمت البحث بالموازنة بين وجهتي النظر في أصل القراءات، وأحسب أن كل باحث منصف سوف يجد وجهة نظر المصادر الإسلامية أرجح من النظرية الاستشراقية التي تُرجع نشأة القراءات إلى خصوصية الخط، وأن القراء اختلفوا في قراءة النص كما يختلف الباحثون في قراءة النقوش القديمة، وشتان بين الأمرين، فليس ثم علاقة بين كاتب النقوش وقارئها، ومن هنا جاء الاختلاف في قراءة كلماتها، أما المصحف فهو محفوظ في الصدور قبل أن يُدَوَّن في السطور، وكانت القراءات معروفة قبل كتابة المصاحف، فكيف تنشأ عنها؟!

وأتمنى أن يعيد المستشرقون وتلامذتهم النظر في هذه القضية، فليس أسوأ في العلم من الإصرار على الخطأ بعد أن تتضح الحقيقة، وأتمنى أن يعيدوا النظر في طريقة تناولهم لتاريخ القرآن، فقد رسموا له صورة مشوهة تصرف كثيراً من الناس عن نور الهداية التي جاء بها، فيحملوا عندئذ أوزارهم وأوزار الذي يضلونهم.

هذا، والله تعالى الموفق للصواب، والهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية:

- الأصفهاني، حمزة بن الحسن: التنبيه على حدوث التصحيح، تحقيق محمد أسعد طلس، ط ٢، دار صادر، بيروت ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٠ هـ = ١٩٧١ م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ١٤٢٢ هـ.
- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي (ج ١)، ط ٥، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر ١٩٨٣ م.
- بعلبكي، رمزي: الكتابة العربية والسامية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١ م.
- بلاشير: القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤ م.
- بياترس، جرندلر: تاريخ الخطوط والكتابة العربية من الأنباط على بدايات الإسلام، ترجمة د. سلطاني المعاني، وفردوس العجلوني، بيت الأنباط ٢٠٠٤ م.
- الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨ م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: شرح حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف، تحقيق د. محمد إبراهيم فاضل المشهدي، عالم الكتب الحديث، إربد ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م.
- جبل، محمد حسن حسن: الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، ط ٢، كلية القرآن الكريم بطنطا ٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣ م.
- الجبوري، سهيلة ياسين: أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٧٧ م.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد:
 - غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق برجستراسر، المطبعة الرحمانية ١٣٥١ هـ.
 - النشر في القراءات العشر، راجعه الشيخ علي محمد الضباع، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (تصوير: دار الكتب العلمية).
- الجعبري، إبراهيم بن عمر: جملة أبواب المراسد في شرح عقيلة أتراب القصائد، تحقيق د. محمد خضير مضحي الزوبعي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءة، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة ١٩٦٦ م.
- جولدتسيهر، إجنسس: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩ هـ.
- الحمد، غانم قدوري:
 - أبحاث في رسم المصحف وضبطه، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٣٩ هـ = ٢٠١٨ م.
 - أبحاث في العربية الفصحى، دار عمار، عمان ٢٠٠٥ م.
 - علم الكتابة العربية، دار عمار، عمان ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم الأدباء، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.
- ابن حنبل، أحمد: مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد:
 - البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت ١٤١٤هـ=١٩٩٤م.
 - التيسير في القراءات السبع، تحقيق أوتو برتزل، مطبعة الدولة، إستانبول ١٩٣٠م.
 - جامع البيان في القراءات السبع، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م.
 - المحكم في علم نطق المصاحف، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق - بيروت ١٤٣٨هـ=٢٠١٧م.
- ابن أبي داود، عبد الله بن سليمان: كتاب المصاحف، تحقيق د. محب الدين عبد السبحان واعظ، ط ٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م. (وتحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥هـ=١٩٣٦م، في بعض المواضع).
- ديروش، فرانسوا: محاضرات في الكولج دو فرانس، ٢١٠٥م، ترجمة د. عبد الرزاق إسماعيل هرماس، على هذا الرابط: <https://vb.tafsir.net/tafsir45327/#.WktowLcjTIU>
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق د. طيار آتلي قولاج، مركز البحوث الإسلامية، إستانبول ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- الراجحي، عبده: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- الرازي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد: معاني الأحرف السبعة، تحقيق د. حسن ضياء الدين عتر، دار النوادر ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، ط ٥، دار العلم، بيروت ١٩٨٠م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- شاهين، عبد الصبور: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، دار القلم ١٩٦٦م.
- ابن شبة، عمر بن شبة البصري: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهد محمد شلتوت ١٣٩٩هـ.
- شلبي، عبد الفتاح إسماعيل: رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم: دوافعها والرد عليها، ط ٢، دار الشروق، جدة ١٩٨٣م.
- الشيرازي، نصر بن علي ابن أبي مريم: الموضح في وجوه القراءات وعللها، تحقيق د. عمر حمدان الكبسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود: مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر ١٤١٩هـ=١٩٩٩م.
- عباس، فضل حسن: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، نقد مطاعن ورد شبهات، دار الفتح، عمان ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام:
 - غريب الحديث، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت ١٤٢٣هـ=٢٠٠٣م.
 - فضائل القرآن ومعالمه وأدبه، تحقيق مروان العطية وصاحبيه، دار ابن كثير، دمشق - بيروت ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.
- العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تحقيق عبد العزيز أحمد، البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣م.
- العطار، الحسن بن أحمد، أبو العلاء الهمداني: التمهيد في معرفة التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.

- العقيقي، نجيب: المستشرقون، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م.
- القاضي، عبد الفتاح عبد الغني: القراءات في نظر المستشرقين والمحدثين، دار مصر للطباعة ١٤٠٢ هـ.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة ١٩٧٣ م.
- القيسي، مكي بن أبي طالب:
 - الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٠ م.
 - الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، تحقيق د. محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م.
- ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس: كتاب السبعة في القراءات، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٤٠٠ هـ.
- المنتوري، محمد بن عبد الملك: شرح الدرر اللوامع في مقرأ الإمام نافع، تحقيق الصديقي سيدي فوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.
- المنجد، صلاح الدين: دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٢ م.
- المهدي، أبو العباس أحمد بن عمار: شرح الهداية، تحقيق د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، تحقيق رضا - تجدد، طهران ١٩٧١ م.
- نولده، تيودور: تاريخ القرآن، تعديل فريديرش شفالي، ترجمة د. جورج تامر، دار نشر جورج المزر، نيويورك ٢٠٠٠ م.

ثانيًا- المصادر والمراجع الأجنبية:

References

- Al-Askari, al-Hasan b. Abdallah, *Sharh ma Yaqafih al-Tashif wa al-Tahrif*, ed. Abdel Aziz Ahmad, (in Arabic), (Cairo: Matbaat al-Babi al-Halabi, 1963).
- Al-Dani, Uthman b. Said, *al-Bayan fi Add Ay al-Quran*, ed. Ghanim al-Hamad, (in Arabic), (Kuwait: Markaz al-Makhtutat wa al-Turath wa al-Wathaiq, 1994).
- Al-Hamad, Ghanim, *Abhath fi Rasm al-Mushaf wa Dabtih*, (in Arabic), (Amman: Jamiyyat al-Muhafaza ala al-Quran al-Karim, 2018).
- Al-Mahdawi, Ahmad bin Ammar, *Sharh al-Hidayah*, ed. Hazim Saeed Haydar, (in Arabic), (Riyadh, n.d.).
- Al-Qaysi, Makki bin Abi Talib, *al-Ibana an Maani al-Qiraat*, ed. Abdel Fattah Shalabi, (in Arabic), (Cairo: dar Nahdat Misr, 1960).
- Al-Shirazi, Nasr b. Ali, *Al-Muwaddah fi al-Qiraat wa Ilaliha*, ed. Umar Hamdan al-Kubaysi, (in Arabic), (Jeddah: al-Jamaa al-Khayriyya li Tahfiz al-Quran, 1993).
- Ibn Mujahid, Ahmad b. Musa, *Kitab al-Saba fi al-Qiraat*, ed. Shaqi Dayf, (in Arabic) (Cairo: Dar al-Maarif, 1400 AH).